القدس في وجدان المسلمين و المسيحيين

■ **حسن خامه يار**

القدس... هي قلب فلسطين النابض، هي شريان الحياة، فمنذ الأزل كانت القبلة الأولى للمسلمين والمسيحين، ومن حولها ولد سيدنا المسيح (ع) وخصها الله بالبركة لتكون مسرى رسولنا الكريم محمد بن عبد الله (ص) وقد كانت وما زالت مركز الصراع الذي وُجد منذ أن خلقت الدنيا وهي التي من أجلها قدم المسلمون والمسيحيون آلاف الشهداء لكي تبقى شامخة برغم كُل ما يواجهها من عدوان ومؤامرات، وهي من ضحى من أجلها آلاف المقاتلين من العرب والمسلمين.

القدس... مدينة السلام التي شكلت للعالم أجمع رسالة الديانات السماوية وكانت التاريخ المشرق للكثير من الفرسان والأبطال الذين سُطرت أسماءهم بأحرف من نور في تاريخنا الماضي والحاضر، وضحى من أجلها عشرات الشهداء من أمثال الأسد عزالدين القسام والحاج أمين الحسيني والدكتور فتحي الشقاقي والشيخ احمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي. فمن أجل القدس يتوحد كُل المختلفين وكل المخلصين والشرفاء، ومن أجلها يمتزج الدم الفلسطيني بكافة

أطيافه السياسية، وكانت القدس هي القاسم المشترك وسبيل الوحدة لأبناء فلسطين الواحدة، فها هو الشيخ رائد صلاح يتعرض للكثير من أجل القدس، وها هو الشيخ تيسير التميمي يحاكم من أجل القدس، وها هو شعبنا يستعد للدفاع عن القدس بكل ما يملك لتبقى شامخة في وجه العدوان.

يا قدس.. يا مدينة السلام.. يا مدينة الشهداء

ما زالت الإنتفاضة المباركة تحمل إسمك الطاهر النقي، برغم كُل محاولات التشويش والتشويه والمساس. فها هم أبناءك على العهد باقون ولن تستطيع كُل المسافات أن تفرق بينهم فلا جدار ولاحصار وسيبقى شعار الجميع "كلنا للقدس".

الأقصى جزء من القضية المركزية الفلسطينية، وان خدمة هذه القضية تستدعي بذل الغالي والرخيص والتعبئة العامة لتحريرها من دنس المحتلين. إنّ المساسّ بالأقصى وحرمته وقدسيّته لم يبدأ اليوم. بل منذ انطلاق وتنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين، وان احتلالها في حزيران عام ١٩٦٧ يعتبر أحد محطات هذا المشروع. ومن المؤسف أنّ بعض التوجّهات والانظمة السياسية في العالم العربي، تحاول التخفيف من وطأة المؤامرات الصهيونية تجاه المسجد الاقصى، وتقلل عمليًّا من تأكيد حقيقة المكانة الدينية والتاريخية لها. وهي أنظمة مكبّلة ذاتيًّا، بتبعيتها لحامي الاحتلال الإسرائيلي الأكبر المتمثّل في الادارة الاميركية. إنّ المؤسّسة الإسرائيلية تسعى بكلّ جهد للانخراط في المشروع الأميركي الذي يريد تسعير ما يسمّى بصراع الحضارات بمفهومه الديني والسياسي. لأنّ هذا الجدل يغيّب جوهر الصراع. ينزع عنه ماهيته الاستعمارية والاحتلالية ويبقيه في فضاء فضفاض كاذب، كأنّ قوامه الصراع بأدوات متنوعة.

القدس صلاة المؤمنين ومهوى افئدتهم... حضن التاريخ الانساني، والطريق إلى السماء، ومدينة السلام، ومدينة المسلمين والمسيحين، الذين عبدوا رب السموات الواحد العادل، ولم يعرفوا التمييز بين دين ودين، لانهم عباد الله الصادقين، ظلت طول القرون الماضية زاخرة بتراثها، التي حفظته من خلال آثارها، مآذنها، قبابها، حجارتها، ازقتها، جدرانها، اسطحها، زيتونها، لم تستسلم يوما لكل المعارك، ولا الزلازل. تخرج منها قوية غنية، تفوح بعطرها المقدس على اطرافها، هاتفة باسم قاطنيها الفلسطينيين، في تكبيرات الصلاة إلى الله رب العالمين.

القدس، التي عاش فيها الفلسطينيون قرونا عديدة، وحموا فيها آثار كل الذين عاشوا فيها، ومنعوا عنها كل انواع العدوان والاثام. القدس التي انفق عليها خراج مصر لسبع سنين، والتي اوقف لخدمتها الملايين، تبرعات سخية صادقة من الآلاف الذين هفت اليها قلوبهم، وتوجهت اليها وجوههم، بالايمان الصادق. القدس درة التاريخ القديم والحديث، دائما غسلت شوارع اهلها الذائدين عن حماها، دماء فلذات اكباد الامهات، وامل عيون الرجال. القدس مدينة السلام، وعاصمة الفلسطينيين، وهي عاصمة دولة فلسطين المستقلة، وهي التي انتدبوا انفسهم لخدمتها وحمايتها وصون اثارها وحضارتها.

لن ينفع عتاة الاسرائيليين ما فعلوه طوال الاعوام الماضية على احتلالهم لها، فقوانينهم باطلة مرفوضة، واجراءاتهم تعسفية تمت في ظل حراب الارهاب والاحتلال. وهي لن تكون سلعة يتسابق عليها سراق الامجاد الباحثين عن مكاسب سياسية حزبية اسرائيلية. وكل المناقشات التي تدور في الحلبات السياسية والحزبية في اروقة الكنيست، تسعى إلى تغطية الحق بالباطل والصدق بالكذب. ان القوانين الاسرائيلية، لن تستطيع ازالة الوجوه الفلسطينية، التي تبرز امام حوانيتها العتيقة، والتي توارثوها ابا عن جد، ولن تنفع تلك الدعوات الحاقدة الرعناء، التي يطلقها المحرضون الاسرائيليون، الذين يسعون وراء سراب من الكذب الهائم في عقولهم المريضة. شوارع القدس العتيقة، التي تفتح حوانيتها ابوابها كل صباح، تبيع لزبائنها الفلسطينيين حاجاتهم وهداياهم، لن يبدلها اجراءات التهويد الباطلة، وستظل طريق آلاف المصلين إلى ساحة المسجد الاقصى، وآلاف الحجاج اليها من كل حدب وصوب، ليرفعوا اسم الله في الارض، ويذكروه شاكرين طائعين. القدس بأهلها وعاداتهم، وافراحهم واتراحهم، قائمة ومستمرة في حياتها، ولا ينغصها الا تلك الاجراءات التي يتخذها المسؤولون الاسرائيليون المحتلون، عندما يعبثون بتراثها وحضارتها، ويوم حاولوا

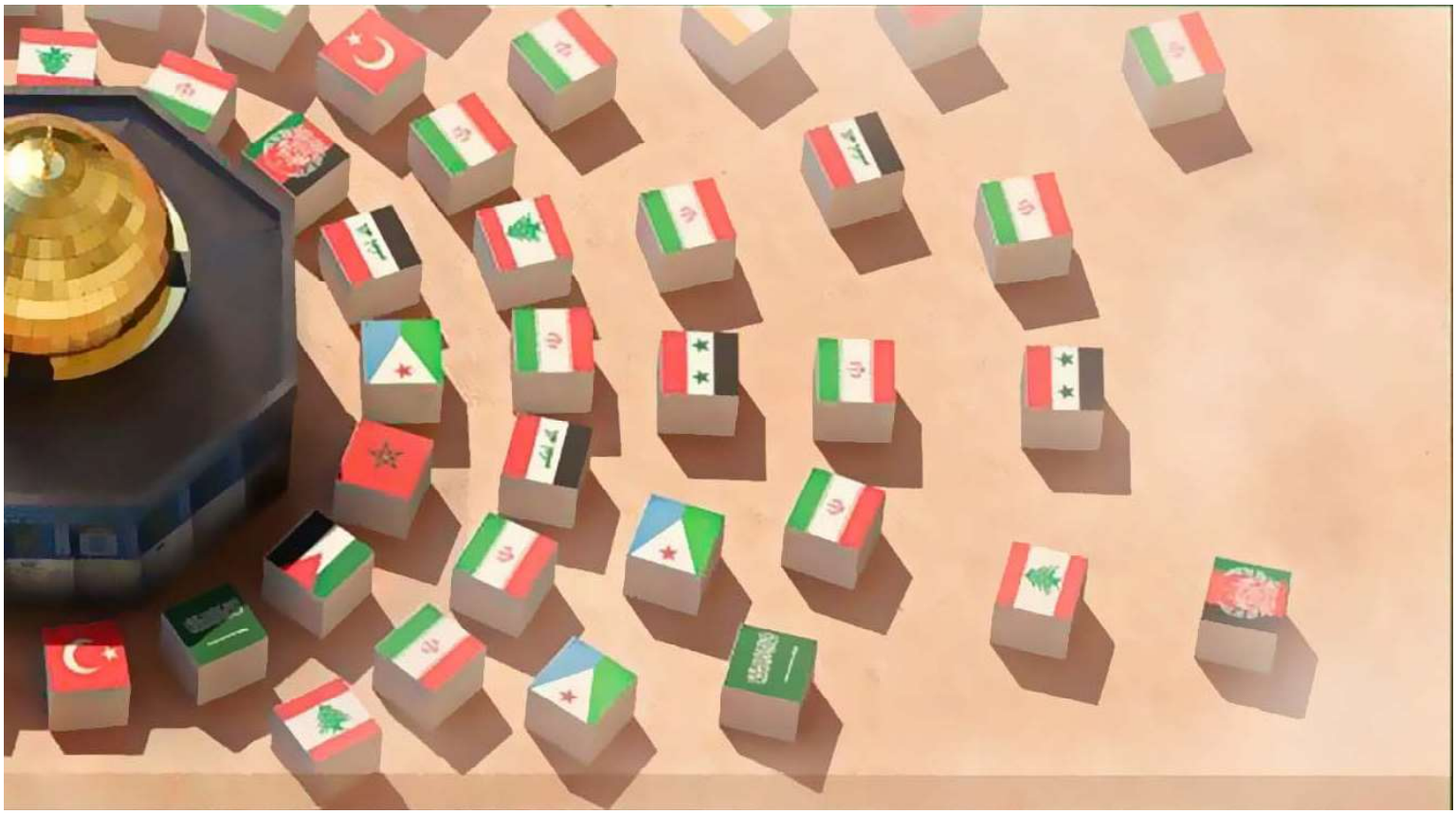

حرق الاقصى وكنيسة القيامة، والتي يحرس جنباتها ومعالمها معاول العاملين في بنائها وتجديدها. القدس عاصمة القلوب، سوف تكافح حتى يخرج الغرباء، كما دخلوها، لتظل كما كانت دائما، عاصمة الله على الارض، في حماية اهلها الميامين.

إن قدسية الأقصى، وفقًا لكل المؤمنين بها، ستظلّ قدسية مطلقة حتى لو وقع تحت أي حُكم احتلالي. كما ان المسألة ليست القدسية فحسْب، بل المعاني الحضارية والوطنية المرتبطة بها. وهكذا يظل السؤال الحقيقيّ الأول هو الوطنيّ التحرّري. وهو ما يجعل قضية الأقصى، قضية المسلمين والمسيحيين والرافضين والمقاومين للاحتلال والاستبداد. ينبغي على الفلسطينيين جميعاً عدم ترك الخطاب الإسرائيلي المتأمرك يبتلع القضية، وكأنها تفصيل آخر في صراع أديان وثقافات. وعليهم أن يحذروا من الوقوع، دونما قصد، في فخّ هذا الخطاب. فقضية المسجد الاقصى، والقضية الفلسطينية برمتها، كانت ولا تزال مسألة تحرّر وطنيّ ودينيّ ومصيري قبل كلّ شيء.

ان المسلمون والمسيحيون في القدس والأراضي الفلسطينية ينتمون الى شعب واحد، هو الشعب العربي الفلسطيني المناضل والمكافح في سبيل تحقيق طموحاته وتطلعاته الوطنية في الحرية والاستقلال. وان هذا الشعب كان وما زال يشكل جسداً واحداً وأسرة واحدة هاجسها هو الدفاع عن القدس والمسجد الاقصى وطابعها الحضاري، الانساني، التراثي، الإسلامي، المسيحي. فقد كان اللقاء الاسلامي ـ المسيحي الأول في المدينة المقدسة عندما التقى بطريرك القدس الدمشقي "صفرونيوس" مع خليفة الثاني الذي أتى فاتحا للمدينة المقدسة في القرن السابع للميلاد. فجالا معا في شوارع القدس العتيقة ورحّب صفرونيوس بخليفة ترحيبا كبيرا وجموع المسيحيين المقدسيين كانت تشاطره هذا الترحيب، ودخلا معا إلى كنيسة القيامة. هذا اللقاء هو أصدق تعبير عن العلاقة التي تربط أبناء الأمة الواحدة من مسلمين ومسيحيين. وينبغي علينا أن نؤكد لأولئك الذين يتحدثون عن صراع الحضارات في الادارة الاميركية والكيان الصهيوني المحتل. أن كل محاولاتهم لطمس الهوية الاسلامية والمسيحية في القدس لإثارة الفتنة في صفوف الفلسطينيين باتت باطلة وفاشلة. فمنذ احتلال القدس بدأت السلطات الاحتلالية محاولات بائسة لتغيير طابعها وديموغرافيتها ووجها الانساني، ولكن التصدي لسياسات الاحتلال كان عنوان التعاون والتفاهم واللقاء بين المسلمين والمسيحيين. فالإسرائيليون الطغاة لايريدون تعاونا اسلاميا مسيحيا فحسب، بل الانكي من ذلك يسعون إلى زرع التشرذم والتفتت والطائفية والتعصب الديني بين المسلمين انفسهم تطبيقا لمقولة فرق تسد. أنهم

يريدون تفريقنا لكي يتسلطوا على أرض الاسراء والمعراج ليتحكموا فينا، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل. فمؤامراتهم الدنيئة فشلت، لأن الشعوب العربية والاسلامية بلغت مرحلة متقدمة من الوعي، لا يمكن لدسائس الاحتلال وأساليبه الخبيثة أن تنال من عزيمنا وصمودنا ووحدتنا، فالمساجد والكنائس تتعانق، والصليب والهلال يتعانقان في لوحة فسيفسائية رائعة، ولقاء المسلمين والمسيحيين أخوة الدم والوطن بات يزعج الاحتلال.

فعندما أُحرق المسجد الأقصى المبارك، وعندما كان الشهداء يسقطون ورصاصات الغدر والعنصرية تنهمر على المصلين لكي تجعل من عباد الله الساجدين له مضرجين بدمائهم، وعندما كانت الانتهاكات المتتابعة والمستمرة لحرمة الأقصى الشريف كان المسلمون والمسيحيون معا في الميدان، فالأقصى وكنيسة القيامة هي معالم حضارية انسانية، وعندما كان يعتدى على الاقصى والقيامة، كنت ترى أبناء الشعب الواحد يقفون معا في وجه العدوان والطغيان. لإن ممارسات الاحتلال العنصرية جعلت المسلمين والمسيحيين يوطدون علاقاتهم، وجعلت المؤسسات الإسلامية والمسيحية تتعاون فيما بينها لإفشال المخططات المعادية. إن القدس هي مركز قضايا الامة ورمز وحدتها، ورسالة المسجد الاقصى في هذه الظروف الحساسة هي رسالة التوحيد لكي نكون أقوياء، وننقذ فلسطين، كل فلسطين من براثن الاحتلال...

وقد ألّف عشاق المدينة المدينة المقدسة من المسلمين والمسيحيين أبيات شعرية وقصائد حماسية كثيرة ومتنوعة تعبر عن آلامهم أو آمالهم وحبهم بها، سمّيتها "شعر القدس". وإذا ما تتبعنا الكتب والدراسات التي صدرت في فترات مختلفة، وخاصة فترة "تحرير بيت المقدس" من أيدي الصليبيين، كانت تتناول مدحًا للأيوبيين ووصفًا لبطولاتهم، وذلك على غرار قول أبي الفضل الجلباني المتوفي سنة ٦٠٣ هجرية وهو يقول:

الله أكبر أرض القدس قد صفرت
من آل أصفر إذ حَين به حانوا
حتى بنيت رتاجَ القدس منفرجًا
ويصعد الصخرة الصماء عثمان
واستقبل الناصر المحراب يعبد من
قد تم من وعده فتح وإمكان

ولا نستطيع أن نقع على قصيدة مستقلة تتحدث عن قدسية المكان وعن معالمه أكثر من مجرد ذكر الاسم وإنما هي شذرات جمل وعبارات مختلفة بل كان من المتوقع أن نقرأ قصائد القدس في كتب فضائل القدس الكثيرة أو في كتاب "الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل" لمجير الدين الحنبلي المطبوع في القرن الـ ١٦ الميلادي وفي كتب أخرى من هذا القبيل، أو في كتب الرحلات وما شابهها، غير أن الحال لم تكن بأفضل

حتى منتصف القرن العشرين. مع أن القدس ومنذ بدايات ذلك القرن أخذت تعيش في صراع جديد يستلزم بالضرورة أن تكون هناك قصائد معبّرة عن الخطر ومنذرة بما يحدق منه، فكان خليل مطران، في قصيدة "تحية للقدس الشريف" لا يجد إلا لغة التعميم في ذكره حبه لها:

سلامٌ على القدس الشريف ومن به
على جامع الأضداد في إرث حبه
على البلد الطهر الذي تحت تربه
قلوبٌ غدت حبّاتها بعض تربه
به مبعث للحب في كل موطئ
لأقدام فادي الناس من فرط حبّه

وبدوره علي محمود طه وهو من الشعراء المصريين القلائل الّذين أوردوا ذكر القدس، وتناولوا القضية الفلسطينية في منتصف القرن العشرين ويقول:

أخي إن في القدس أختًا لنا
أعد لها الذابحون المدى
أخي قم إلى قبلة المشركين
لنحمي الكنيسة والمسجدا

وبنفس الروح وفي إشارات مماثلة يقول عمر أبو ريشة:

يا روابي القدس يا مجلى السنا
يا رؤى عيسى على جفن النبي

ويضيف:

يا تثني البراق في ليلة الأسراء
والوحي ممسك بعنانه

وعندما كان الملك عبد العزيز آل سعود في طريقه إلى بيت المقدس (١٩٣٥/٨/١٤) أنشد الشاعر عبد الرحيم محمود قصيدة حماسية، عاتب فيها الملك وقال:

المسجد الأقصى أجئت تزوره
أم جئت من قبل الضياع تودعه؟
حرمٌ يباح لكل أوكع آبقٍ
ولكل أفّاق شريدٌ أربعه

وإثر الهزيمة العربية في الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ غنّت السيدة فيروز قصيدة "زهرة المدائن" من كلمات الأخوين عاصي ومنصور رحباني فترددت أصداءها في كل مكان، وكان لها عميق الأثر على الضمائر، ومن كلماتها:

عيوننا إليك ترحل كل يوم
تدور في أروقة المعابد
تعانق الكنائس القديمة
وتمسح الحزن عن المساجد
يا ليلة الإسراء
يا درب من مرّوا إلى السماء
عيوننا إليك ترحل كل يوم
وإنني لأجلك أصلي

وكانت هذه القصيدة المشروع المؤثر الأول لمن أنشدوا للقدس حيث تلتها قصيدة نزار قباني، "القدس" ويبدأها:

بكيت... حتى انتهت الدموع
صليت.. حتى ذابت الشموع
ركعت.. حتى ملني الركوع
سألت عن محمد فيك وعن يسوع
يا قدس، يا مدينة تفوح أنبياء
يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء

وفي نهاية المقطوعة الرابعة يتساءل الشاعر :

من يوقف العدوان
عليك يا لؤلؤة الأديان؟

وفي الشعر الفلسطيني أنشد أمين شنار قصيدة "بيت المقدس" ضمن أدبيات الشعراء العرب في ذلك الحين وهذه سطور منها :

هنا المآذن الحزينة التي تسامر النجوم
تمتد في وجوم
المسجد الأقصى هنا مسرى الرسول
مشى المسيح ها هنا وأمه البتول
هنا الفاروق شاد مسجدا
هنا صلاح الدين روى العدا

ويستذكر إدمون شحادة من الناصرة في قصيدته "مدينة السلام والآلام" أغنية فيروز، فيبدأ قصيدته باقتباس مطلعها "شوارع القدس العتيقة"، ثم يقول:

بحزنها العتيق
تعيد صورة الأسطورة
فتشرئب في زوايا العطر والبريق

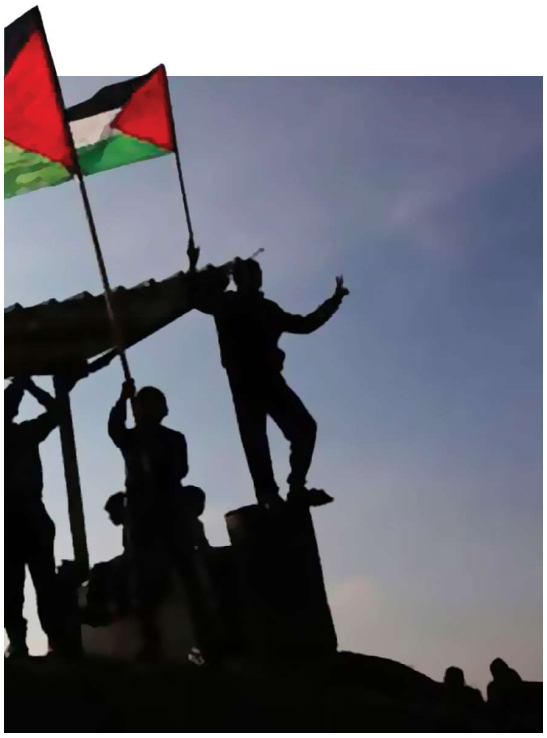

أنشودة الأيام والسنين
أسير مغرما
بلهفة البراءة النقية
وفي التفاف كل منحنى
حكاية لحارس شرس

إدمون شحادة ومن خلال إحساس عربي بالقضية يتضامن مع موقف المسلم واعتباراته الدينية، لأنه شريكه في الموقع والنضال ويقول:

يا بهجة المساجد العالية الأعناق
ويا امتداد ومضة الإيمان
في القلوب والشفاه
ووحدة الرحمن

وإذا كنا قد رأينا قصيدة إدمون شحاده، وهو الشاعر المسيحي تستلهم رموزًا إسلامية. فإن فدوى طوقان الشاعرة المسلمة، تستلهم هي الأخرى رموزًا مسيحية، وذلك في قصيدتها "إلى السيد المسيح في عيد ميلاده":

يا سيد مجد الأكوان
في عيدك تصلب هذا العام
أفراح القدس
صمتت في عيدك يا سيد كل الأجراس
القدس على درب الآلام
تجلد تحت صليب المحنة

تنزف تحت يد الجلاد
والعالم قلب منغلق
دون المأساة
يا سيد مجد القدس
يرتفع إليك أنين القدس
رحماك أجز يا سيد هذي الكأس!

وكثيرا ما تردد رموز القدس الإسلامية والمسيحية في إطار التعبير القومي العربي، فهذا جمال قعوار مثلا يقول:

فالتمسوا غير الصخرة
غير الأقصى
غير القدس
فسور القدس منيع لا يهدم
كنيسة تدق في أجراسها
قيامة مسيحيا يا ناصري!
يا درب آلامي أسير صابرا
أمشي على إيلام جرح طاهر

وقد لاحظ عامي إليعاد في دراسته بالعبرية، عن القدس في الأدب الفلسطيني في فترة الانتفاضة (١٩٨٧-١٩٩٣)، أن الشعراء الفلسطينيين، يذكرون رموز الديانتين الإسلامية والمسيحية من غير أن يذكروا الديانة اليهودية. فعندما تطرق إلى قصيدة "نقوش على ترنيمة الأقصى"، أشار إلى التفاؤل الذي يختم به الفلسطينيون قصائدهم، وأن المساجد والكنائس تشارك هموهم، ويرى أن تجاهل اليهود ومعابدهم بارز، كما أن اليهود يردون كثيرا بصورة صليبيين جدد.

ويكتب جمال قعوار قصيدته مباشرة بعد الانتفاضة مخاطبًا القدس في قصيدته "العنوان الجديد" وهو يتحدث فيها عن القدس، وعن الطفلة التي تعلم المحتل معنى الصمود، وينهيها بالقول:

جددي يا قدس عهداً
واكتبي في الكون مجداً
وانشري في أضلع المحتل رعباً
ليس يهدا
لتعود القدس حرة
ولتبقى أبدا في جبهة التاريخ غرة

وكما أشرت سابقًا إلى أن قصيدة "زهرة المدائن" كانت فاتحة القصائد التي تناولت المدينة بقصائد متفائلة أو باحثة عن الخلاص، حتى أصبحت "قصيدة القدس" محاولة للتحرر والخروج من الحيف والاحتلال. غير أن قصيدة مظفر النواب "وتريات ليلية" التي كتبها بعد نكبة حزيران، كانت ذات طابع هجومي حاد فيها اتهام للعرب بالقصور، وفيها يأس تنفّس عنه شتائم متتابعة لا تستثني الشاعر نفسه :

القدس عروس عروبتكم
فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها
ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب
لصرخات بكارتها
وسحبتم كل خناجركم وتنافحتم شرفًا
وصرختم فيها أن تسكت صونًا للعرض
فما أشرفكم .... هل تسكت مغتصبه؟

وهذه القصيدة حملت توجهًا جديدًا سرعان ما لاقى أصداء متباينة في الشعر الفلسطيني، فهذا فوزي البكري يصدر ديوانًا بعنوان صعلوك القدس القديمة يضمنه القصيدة "هل يسكت بيت المقدس؟" فيقول

قدسه الله ... فسبحان الله
ماذا في بيت المقدس
يا عرب النفط /القحط/ السخط
يا كل دراويش الجامعة العربية
فلتسقط كل منابركم
وليسقط كل أساطين اللغط

وعندما ترتفع وتنزل المعاول وآلات الحفر في المدينة المقدسة للتنقيب عن الآثار اليهودية، ماذا يبقى لنا؟ ماذا نصنع إذا استمر الصهانية بالتنقيب والحفريات؟ هل نرفع أيدينا بالدعوات؟ اليوم القدس تنوء بصرختها.. يا حزن التاريخ المسموع !ماذا نقول والعربان قد هربت وخلّتها لتصبح أورشليم الهيكل المزعوم؟!

نستنتج مما تقدم، إن القدس أصبحت موضوعًا في القصيدة الحديثة، وترنيماً يتردد ويتكرر في وجداننا، فهي المدينة الخالدة سيدة الأرض وهي الرمز الاسلامي والمسيحي، وظلّ ذكر ذكرها يرد لمامًا هنا وهناك في الشعر العربي الحديث عامة، والفلسطيني منه خاصة، إلى أن وقعت الكارثة، فكانت قصيدة الأخوين رحباني "زهرة المدائن" التي أنشدتها فيروز، هي ردّ فعل للأغنية العبرية "أورشليم من ذهب". ولكن اليوم المطلوب هو اكثر من قصيدة، نحن نحتاج إلى مقاومة إلى عمل يوقف الهدم أولاً ويحرر المدينة المقدسة ثانياً.....